المحاضرة الثالثة في العقيدة للفرقة الثانية عام ١٤٣٦ هـ

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا

من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ... أما بعد ،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي نبيينا محمد ، وشر الأمور محدثاتها ،

وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد ...

- وقفنا عند باب :

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾(١) وقوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾(٣).

- وأما الأحاديث فـ :

-١

عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ أخرجاه،

-٢

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»، ورواه البرقاني في «صحيحه»

وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

- هذه هي آيات وأحاديث الباب .. ونشرع في الشرح الآن :

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء أنَّ بعض هذه الأمة يعبدُ الأوثان.

- ما علاقة ترجمة هذا الباب ، بالباب السابق **" حماية المصطفى جناب التوحيد "** ؟

- أنه بعدما ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدّخر وسعًا ولا جهدًا في أن يحمي جناب التوحيد ، أردف ذلك ببابًا يوضح فيه أن أمر الله نافذ ، والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

- وأنه أمرًا كونيًا أن يقع في هذه الأمة الشرك ، كما وقع فيمن كان قبلها .

- ويريد بذلك أيضًا أن ينبّه المغرورين ، سواء ممن انتحلوا مذهب الإرجاء ،

فقالوا لا يضر مع الإيمان ذنب ، ومن هم على شاكلتهم ،

أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن هذه الأمة سيقع فيها الشرك وعبادة الأوثان .

- وكذا أراد المصنف أن يقيّد به أحاديث أخرى والتي جاء فيها **" أن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب "** وغير ذلك ..

• وقال في الترجمة " **بعض** هذه الأمة يعبد الأوثان " ؟

- هذا التعبير فيه دقة ؛ لأن الأمة بحمد الله عزوجل ، لا تزال طائفة منها ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، فالأمة لن تجتمع على باطل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " **أمتي لا تجتمع على ضلالة** " ،

ولا تقوم الساعة حتى تأتي ريح طيبة لتقبض أرواح هذه الطائفة المؤمنة ،

فتدخل من تحت آباطهم لتقبض أرواحهم ، فلا يبقى إلا شرار الخلق ، عليهم تقوم الساعة .

وقول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ [النساء: ٥١].

ش: الوثن: يطلقُ على ما قُصد بنوعٍ من أنواع العبادة من دون الله، من القبور والمشاهد وغيرها؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً**﴾ [العنكبوت: ١٧] مع قوله: ﴿**قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ**﴾ [الشعراء: ٧١] وقوله: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ**﴾ [الصافات: ٩٥] فبذلك يُعلَم أنَّ الوثن يطلقُ على الأصنام وغيرها مما عُبِدَ من دون الله، كما تقدَّم في الحديث.

- هذه الآية .. لها سبب نزول : ↓

روى ابنُ أبي حاتم، عن عكرمة، قال: جاءُ حُيَيَّ بن أخطَب(١) وكعبُ بن الأشرف(٢) إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهلُ الكتاب وأهلُ العلم، فأخبرونا عنَّا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصلُ الأرحام، وننحر الكَوْماء(٣)، ونسقى الماء على اللبن، ونفُكُّ العناة، ونسقى الحجيج. ومحمد صنبور(٤)، قطع أرحامنا، واتبعه سُرَّاق الحجيج

من غفار، فنحن خيرٌ أم هو؟ فقالوا: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾[١].

وفي (مسند أحمد)، عن ابن عباس، نحوه[٢].

- وهذا هو منهج أهل الباطل دائمًا في كل زمن ، وهو منهج التشويه والتضليل وإلصاق التهم ..!

- **وقال سبحانه " أوتوا نصيبا من الكتاب "** ؛ لأنهم لم يُؤتوا الكتاب كاملًا ، لماذا ؟؟ بظلمهم وفسقهم " نسوا حظًا مما ذُكّروا به " وحُرموا بركة هذا العلم .

- ثم ذكر الشارح بعد ذلك الأقوال في معنى الجبت والطاغوت :

قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: الجِبْت: السحر، والطاغوت: الشيطان[٣]. وكذا قال ابنُ عباس/ وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وغيرهم.

وعن ابن عباس، وعكرمة، وأبي مالك: الجبت: الشيطان ـ زاد ابنُ عباس: بالحبشية.

وعن ابن عباس أيضاً: الجبت: الشرك. وعنه، الجبت: الأصنام. وعنه، الجبت: حُيي بن أخطب.

وعن الشعبي، الجبت: الكاهن.

وعن مجاهد، الجِبْت: كعب بن الأشرف[٤].

قال الجوهري: الجِبت: كلمةٌ تقع على الصنم والكاهن والساحر، ونحو ذلك[٥].

- والطاغوت كما عرّفه ابن القيم – رحمه الله :

هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع .

قال المصنف: وفيه: معرفةُ الإِيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع: هل هو اعتقادُ قلبٍ، أو هو موافقة أصحابها مع بُغْضِها، ومعرفة بطلانها؟(٦)

- المصنف رحمه الله يريد أن يقول : انتبه !! من صحّح مذهب الكفار ، أو رضي طريقتهم وسيرتهم ، حتى ولو كان معتقدًا بطلانها بقلبه ، فإنه مثلهم .

- فلا يُشترط للكفر أن تعتقد بقلبك ، بل قد يأتِ الكفر من عمل القلب وليس شرطًا من تصديقه.

- وبهذا نعلم غلط بعض من ينتسبون للسلفية ، ممن يقولون أن الكفر لا يقع إلا باستحلال القلب ، فهذا كلامٌ خطأ ؛ لذا وجب التنبيه عليه .

- وهذه الدلالة التي استنبطها الإمام محمد بن عبد الوهاب ، مأخوذة من سبب النزول الذي ذكرناه آنفًا ، وهو أنه لما جاء حيي بن أخطب وكعب ابن الأشرف - وهم يهود - إلى مشركي مكة ، وقالوا لهم : أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلا "

- فهم هنا وصفوا الشرك أنه أفضل من الإيمان ، وارتضوا هذا الشرك ومدحوه مع أنهم لم يتلبسوا بنفس الشرك .

- فقال الله عنهم " **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** "

- فماذا كانت عقوبتهم ؟

ذكرها الله بعد هذه الآية فقال : "**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** "

- فانتبه !!

لأنه ربما أن يكون مسلمًا ويأتي اليوم ليقول : أن اليهود والنصارى ليسوا بكفار ،

وهم من أهل الجنة !!

- أو يقول مثلا أن اليهود أو النصارى ملتهم صائبة !!

- أو يقول أن الخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى خلاف تنوّع !!

فيصوّب ملة أهل الكفر ويصححها ويرتضيها ، فيكون بذلك كافرًا مثلهم .

" فالرضا بالكفر ، كفر "

- ومن هنا أيضًا علمنا خطورة بعض الكلام المتداول وهو منسوب لمحمد عبده :

أن أوروبا فيها إسلام بلا مسلمين ، وبلاد الإسلام فيها مسلمين بلا إسلام !!

- وهذا نسأله : أي إسلام هذا الذي رأيته في أوروبا ؟!!

- هل هم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ؟!!

- هل هم يقيمون الصلاة أو يؤتون الزكاة أو يصومون رمضان أو يحجون بيت الله ؟!!

- هل هم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه ؟!!

- فماذا رأيت إذًا لتقول أن في بلاد الغرب إسلامٌ بلا مسلمين **؟!!**

- لعلّك رأيت بعض العدل ، وإتقان العمل ، وتجويد لمناحي الحياة ..

وهذا والله من بقايا الوحي الذي ورثوه من أنبيائهم لا غير .

- وهناك من يقول أيضًا : أن النصارى أحسن وأفضل من المسلمين !!

- وهنا سؤال : هل هذه الكلمة تكفّر بذاتها ؟

والجواب : لابد من تفصيل في هذه المسألة :

١- فمن يقول : هم أفضل من المسلمين في كل شئ حتى في دينهم .. فهذا كافر قولا واحدًا

٢- ومن يقول : **بعض** النصارى أفضل من المسلمين في البيع والشراء مثلا أو في إتقان العمل ..

نقول له : هذه الكلمة قبيحة ، ولا يجوز لك المدح على الإطلاق ، فقد كفى بالشرك ذنبٌ ! ،

فالله تعالى قال" **بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** "

- فهناك سيئة واحدة تحيط بالإنسان فتهدم له كل شئ ، ولا تُبقي له حسنة .. وهي سيئة الشرك .

لكن صاحب الحالة الثانية لا يكفر بهذه الكلمة ؛ لإنه بعّض ، ولم يصحح دينهم أو يرتضيه ،

فالله تعالى قال إنصافًا في حق أهل الكتاب "**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ** "

- هذا بالنسبة لآية الباب الأولى ..

٢- أما الآية الثانية فقد :

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذلكَ مَثُوبَةً عندَ الله مَن لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْه وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أولئك شرٌ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل﴾ [المائدة: ٦٠].

ش: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، هل أخبركم بشرٍّ جزاءٍ عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتّصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَعَنَهُ اللهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ﴾.

وقد قال الثوريُّ: عن عَلْقمة بن مَرْثَد،[1] عن المُغيرة بن عبد الله[2]، عن المعرور بن سُويد: إنَّ ابن مسعود، قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: «إنَّ الله لم يُهلك قوماً ـ أو قال: لم يمسخ قوماً ـ فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة، وإنَّ القردة والخنازير كانت قبل ذلك»[3] ورواه مسلم[4].

قال البَغوي في (تفسيره): ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ﴾ يعني، قولهم: لم نَرَ أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء؛ كقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثواباً وجزاءً، نُصب على التفسير ﴿عِندَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ﴾ فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى. وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنَّ المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم/ مَنْ عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سوَّل له.

وقرأ ابنُ مسعود ﴿وَعَبَدُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقرأ حمزةُ: «وعَبُدَ الطاغوتِ» بضم الباء وجر التاء، أراد العبد. وهما لغتان: عَبْد بجزم الباء، وعَبُد بضمها، مثل سَبْع وسَبُع، وقرأ الحسن ﴿وعبْد الطاغوت﴾ على الواحد[5].

قوله: ﴿أولئك شرٌّ مكاناً﴾ مما تظنون بنا ﴿وأضلُّ عن سواء السبيل﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خيرٌ مُستقراً وأحسنُ مَقيلاً﴾ [الفرقان: ٢٤] قاله العِمادُ ابن كثير في (تفسيره)[١]. وَهو ظاهر.

- ووجه الإستدلال بهه الآية على ترجمة الباب هو :

- إثبات أن من هؤلاء من عبد الطاغوت ، وهؤلاء من أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيقع التشبه بهم .

٣- أما آية الباب الثالثة فهي :

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً﴾ [الكهف: ٢١].

ش: والمراد: أنَّهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٢] أراد تحذيرَ أمته أنْ يفعلوا كفعلهم.

- هذه الآية ذُكرت في سياق قصة أصحاب الكهف ، وقد اختلف المفسرين في تعيين المقصود بـ " **الذين غلبوا على أمرهم** " في الآية ، فقيل : هو الملك ومن معه ، وقيل : هم أولياء فتية الكهف ، وقيل : بعض الأشرار وغير ذلك ، وظاهر الآيات أنها لم تذكرهم بمدح ولا بذم .

- وقد استدل بهذه الآية بعض القبوريين الذين يسوّغون للناس جواز الصلاة في المساجد المقبورة ، ووجه الدلالة عندهم على ذلك من الآية ، أن الله ذكر ما فعلوا ولم يُعقّب ،

وفي هذا إقرار على ما فعلوا !

- ونحن نرد عليهم فنقول :

أولًا : لم يرِد في الآية ما يزكّي فعلهم .

ثانيًا : هذا شرع من قبلنا ، وعلى قول طائفة كبيرة من علماء الأصول ،

أن شرع من قبلنا ليس شرع لنا ،

وحتى على القول الثاني أن شرع من قبلنا شرع لنا .

بضابط وشرط وهو إذا لم يأتِ في شرعنا ما يخالفه أو ينسخه .

- وقد ورد في شرعنا ما يخالف هذا ، ومن ذلك ما ورد في الصحيحين وغيرهما من أحاديث ،

كحديث **" لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "** .

- إذًا لم يبق في هذه الآية حجة لهم .

- أما الأحاديث :

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبي سعيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذَّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» أخرجاه[٣].

قوله: «سنن» بفتح المهملة، أي: طريق من كان قبلكم. قال المهلب: الفتح أولى.

قوله: «حَذو القُذَّة بالقذة» بنصب حذو، على المصدر. والقُذة ـ بضم القاف ـ واحدة القذاذ، وهو ريشُ السَّهم. أي: لتتبعن طريقهم في كلٍّ ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قُذة السهم القذة الأخرى، فوقع كما أخبر ﷺ. وبهذا تظهرُ مناسبةُ الآيات للترجمة. وقد وقع كما أخبر، وهو علَمٌ من أعلام النبوة.

قوله: «حتى لو دخلوا جُحر ضبٌ لدخلتموه» وفي حديث آخر «حتى لو كان فيهم من يأتي أمّه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك»(٥).

- والضبّ : هو حيوان مثل الفأر ، يجوز أَكله ، يسكن الصحاري والبراري ، في جحور ضيقة جدًا .

أراد ﷺ أنَّ أمتَّه لا تدع شيئاً مما كان يفعلُه اليهود والنصارى إلا فعلته كله، لا تترك منه شيئاً؛ ولهذا قال سُفيان بن عُيينة: من فسد من عُلمائنا ففيه شبهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبهٌ من النصارى. انتهى(١).

- والدلالة من هذا الحديث على ترجمة الباب : أنه مهما كان عند هؤلاء من ضلال وزيغ وباطل تأنف منه النفوس وتعافه الفِطَر السليمة ، فسيوجد من أمتي من يفعل ذلك .

- وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بوقوع أمر لا يدل على حِلّ هذا الأمر !

فقد يخبر بوقوع شئ من الفتن أو الحرام أو الباطل ؛ من أجل التحذير والتنبيه ، لكن لا يُستدل بمثل هذا على مشروعيته .

قلتُ: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أنْ جعل هذه الأمة لا تجتمعُ على ضلالة؛ كما في حيث ثوبان الآتي قريباً.

- يريد أن ينبّه هنا : أن مما يصيب هذه الأمة .. فساد في علمائها ، وفساد في عبّادها ، وهؤلاء يفسد بفسادهم خلق كثير .

- وكذا بفساد الحكّام ، كما قال ابن المبارك – رحمه الله : وهل أفسد الدين إلا الملوك ، وأحبار سوءٍ ، ورهبانها ؟!!

- فالعابد حينما يزهد في الدنيا ويأخذ نفسه للمشاق والكلفة في العبادة ، يصير قدوة لأناس كثيرين ؛ لأنه يفعل ما لا يقدرون على فعله من الزهد والكلفة في العبادة ، فلو كان هذا العابد جاهلًا أو صاحب بدعة أو فتنة ، فإنه يُفسد معه خلقٌ كثير .

- والعالم يُرجع إليه في كل المسائل ؛ لأن معه أداة العلم ، فلو كان ضالًا فاسدًا ، سيضلّ الناس ويلبّس عليهم أمر دينهم .

- وكذلك الحكّام والملوك ؛ لأن معهم أداة السلطة والقوة المنفّذة للأحكام ، فلو أمروا الناس بالباطل وقهروهم عليه ، فكثير من الناس سيضعف .

- الحديث الثاني من أحاديث الباب :

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن ثَوبان: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله زَوَى لى الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنَّ أُمَّتى سيبلُغ ملكُها ما زُوِىَ لى منها. وأُعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض. وإنى سألتُ ربى لأُمتى أنْ لا يُهلكها بسنَةٍ بعامَّة، وأنَّ لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوى أنفسهم، فيستبيحَ بَيْضتهم. وإنَّ ربى قال: يا محمد، إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ. وإنى أعطيتك لأُمتك أنْ لا أُهلكهم بسنةٍ بعامَّة، وأنْ لا أُسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيحَ بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلكُ بعضاً، ويَسْبى بعضهم بعضاً»[٢].

ورواه البرقانُّى في (صحيحه)، وزاد: «إنمَّا أخافُ على أُمَّتى الأئمة المضلِّين. وإذا وقع عليهم السيفُ لم يُرْفَع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَق حَىٌّ من أمتى بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أمتى الأوثان. وإنه سيكون فى أُمتى كذَّابون ثلاثون، كلُّهم يزعم أنه نبى. وأنا خاتمُ النبيين، لا نبىَّ بَعْدى. ولا تزالُ طائفةٌ من أُمتى على الحقِّ منصورة، لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم حتى يأتى أمرُ الله، تبارك وتعالى».

قوله: عن (ثَوْبان). هو مولى النبي ﷺ. صحبه ولازمه، ونزل بعده الشام. ومات بحمص سنة أربعٍ وخمسين.

قوله: «زَوَى لي الأرض» قال التُّوربشْتي[٢]: زَوَيتُ الشيءَ، جمعتهُ وقبضته. يُريدُ تقريبَ البعيد منها، حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب.

وحاصلُه: أنه طوى له الأرض، وجعلها مجموعةً كهيئة كف في مرآة ينظره. قال الطِّيبي[٣]: أي: جمعها لي، حتى أبصرتُ ما تملكُه أُمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

قوله: «وإنَّ أُمتي سيبلُغ ملكُها ما زُوي لي منها» قال القرطبي: هذا الخبر وُجد مخبرُه كما قال، وكان ذلك من دلائل نُبوَّته. وذلك أنَّ مُلك أمته اتسع/ إلى أنْ بلغ أقصى طَنْجة ـ بالنون والجيم ـ الذي هو مُنتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما وراء خُراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند والصُّغْد[٤]. ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال؛ ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه، ولا أخبر أنَّ مُلك أمته يبلغه.

قوله: «زُوي لي منها» يحتمل أنْ يكون مبنياً للفاعل، وأن يكون مبنياً للمفعول.

قوله: «وأعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض» قال القرطبي: يعني بها كنز كسرى، وهو ملِكُ الفُرس، وكنز قيصر وهو ملِكُ الروم وقصورَهما وبلادهما.

وقد قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله»[٥]

وعبَّر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الجوهر والفضة.

ووُجد ذلك في خلافة عمر؛ فإنَّه سيق إليه تاجُ كسرى وحليتُه وما كان في بيوت أمواله، وجميعُ ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر. والأبيض والأحمر، منصوبان على البدل.

قوله: «وإنّي سألتُ ربي لأمتي أنْ لا يهلكها بسنة بعامة» هكذا ثبت في أصل المنصف رحمه الله تعالى: بعامّة. بالباء، وهي روايةٌ صحيحة في (صحيح مسلم). وفي بعضها بحذفها.

قال القرطبي: وكأنها زائدة؛ لأنَّ عامة صفةُ السنة، والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاكُ العام. ويسمَّى الجدبُ والقحط: سنة. ويُجمع على سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي: الجدب المتوالي.

قوله: «وأنْ لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوى أنفسهم» أي: من غيرهم من الكفار: من إهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً، كما هو مبسوطٌ في التاريخ فيما قبلُ، وإلى زماننا هذا. نسألُ الله العفو والعافية.

قوله: «فيستبيحَ بَيْضتهم» قال الجوهري: بَيْضَةُ كلِّ شيءٍ: حَوْزَتُه. وبيضةُ القوم: ساحتهم[1].

وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إنَّ الله تعالى لا يُسلِّط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض، وهي جوانبها. وقيل: بيضتُهم: معظمُهم وجماعتهم، وإن قلّوا.

قوله/: «حتى يكون بعضهم يُهلكُ بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» والظاهر أنَّ حتّى. عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية. أي: أنَّ أمر الأمة ينتهي إلى أنْ «يكون بعضُهم يُهلك بعضاً» الحديث. وقد يسلِّطُ بعضُهم على بعض، كما هو الواقع؛ وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

- وهذا هو أكبر بلاء وبأس شهدته هذه الأمة ، وهو وقوع هذا البأس الشديد بين أبناء الأمة أنفسهم ، فمن لدن مقتل عمر فُتِح باب الفتن ، واستَعَرَت أكثر من مقتل عثمان إلى يومنا هذا .

ورواه البرقاني في «صحيحه» وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

وروى أبو داود أيضاً، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «تدورُ رَحَى الإسلام لخمسٍ وثلاثين، أو ستٍ وثلاثين، أو سبعٍ وثلاثين، فإنْ يهلكوا فسبيلُ مَن هلك، وإن يَقُمْ لهم دينُهم يقم سبعين عاماً»، قال: قلتُ: إمّما بقى أو مما مضى؟ قال: «مما مضى»[1].

- هذا الحديث يحتاج إلى بحث ونظر ، فقد علّق عليه ابن القيم في حاشية عون المعبود ، وعلّق عليه صاحب عون المعبود نفسه ، والحفظ في الفتح ، والمناوي في فيض القدير

- وملخص الكلام عليه :

" قال صاحب عون المعبود : اعلم أن العلماء اختلفوا في بيان معنى دوران رحى الإسلام ، على قولين :

الأول : أن المراد منه استقامة أمر الدين واستمراره ، وهذا هو قول الأكثرية .

الثاني : أن المراد منه الحرب والقتال ، وهذا هو قول الخطابي والبغوي .

وروى في (سننه) أيضاً، عن هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يتقاربُ الزمان وينقصُ العلم، وتظهرُ الفتن، ويُلقى الشحُّ، ويكثرُ الهرْجُ» قيل: يا/ رسول الله، أيّهْ هو؟ قال: «القتل القتل»[٢].

قوله: «وإنّما أخافُ على أُمّتي الأئمة المضلّين» أي: الأمراء والعُلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم فيُضلُّوهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وكان بعضُ هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجةٌ فليأت إلى قبرى فإنى أقضيها له، ولا خير فى رجلٍ يحجبهُ عن أصحابه ذراعٌ من تراب، أو نحو هذا.

وقوله ﷺ: «وإنما أخافُ على أمتي الأئمة المضلين» أتى بإنّما، التى قد تأتى للحصر؛ بياناً لشدة خوفه على أُمّته من أئمه الضلال. وما وقع فى خلَد النبى ﷺ من ذلك، إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقعُ نظير ما فى الحديث قبله من قوله: «لتتبعن سَنَن من كان قبلكم» الحديث.

وقد بيَّن الله تعالى فى كتابه صراطَهُ المستقيم، الذى هو سبيلُ المؤمنين. فكلُّ من أحدث حَدثاً ليس فى كتاب الله ولا فى سُنة رسوله ﷺ فهو ملعونٌ، وحدثُه مردود؛ كما قال ﷺ: «مَن أحدَث حدثاً، أو آوى مُحدثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ الله منه يوم القيامة صرْفاً ولا عَدْلاً»[١].

- ومن الآثار المهمة في هذا المعنى أيضًا :

-١

وعن زياد بن حُدَير[٤]، قال: قال لى عُمر: هل تعرفُ ما يهدم الإسلام؟ قلتُ: لا، قال: يهدمه زلّةُ العالم، وجدالُ المنافق بالكتاب، وحكمُ الأئمة المُضلّين. رواه الدارمى[١].

٢-

وقال يزيد بن عَميرة(٢): كان مُعاذ بن جبل لا يجلسُ مجلساً للذكر إلا قال: الله حكمٌ قِسط، هلك المرتابون ـ وفيه ـ: واحذروا زيغةَ الحكيم؛ فإنَّ الشيطان قد يقول الضلالةَ على لسان الحكيم قد يقول المنافق كلمة الحق. قلت لمعاذ: وما يدريني ـ رحمك الله ـ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلال، والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: قال لي: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يُقال: ما هذه؟ ولا يثنينك عنه،/ فإنَّه لعله يُراجع الحق، وتَلَقّ الحق إذا سمعته، فإنَّ على الحق نوراً. رواه أبو داود، وغيره(٣).

قوله: «وإذا وقع عليهم السيفُ لم يُرفع إلى يوم القيامة» وكذلك وقع، فإنَّ السيف لما وقع بقتل عُثمان رضي الله عنه لم يُرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثُر تارة، ويقلُّ أخرى. ويكون في جهة، ويرتفعُ عن أخرى.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يَلْحق حيٌّ من أمتي بالمشركين» الحيُّ واحدُ الأحياء، وهي القبائل. وفي رواية أبي داود «حتى يلحق قبائلُ من أمتي بالمشركين» والمعنى. أنَّهم يكونون معهم، ويرتدُّون؛ برغبتهم عن أهل الإِسلام، ولحوقهم بأهل الشرك.

قوله: «وحتى تعبُدَ فئامٌ من أُمتي الأوثان» والفئامُ ـ مهمُوز ـ: الجماعاتُ الكثيرة. قاله أبو السعادات(٤).

- **يقول ابن العثيمين – رحمه الله :** " يلحق بالمشركين " ، معناها :

١- أن يلحقوا بهم مكانًا ، بأن يسكنوا ديار المشركين ؛ إيذانًا منهم بأنهم معهم .

٢- أو يلحق بهم حكمًا ، أي أنهم يعبدون ما يعبدُ هؤلاء المشركين .

وفى معنى هذا الحديث: ما فى «الصحيحين»، عن أبى هريرة رضى الله عنه، مرفوعاً «لا تقومُ الساعةَ حتى تضطرب أَلْيَاتُ نساء دَوْس على ذى الخَلَصة». قال: وذو الخَلَصة، طاغيةُ دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية(١).

قوله: «وإنه سيكون فى أمتى كذَّابون ثلاثون كلُّهم يزعم أنَّه نبى» قال القرطبى: وقد جاء عددُهم معيّناً فى حديث حُذيفة، قال: قال رسولُ الله ﷺ «يكون فى أمتى كذابون دجَّالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة» أخرجه أبو نُعيم. وقال: هذا حديثٌ غريب(١). انتهى.

وحديثُ ثوبان أصحُّ من هذا.

وليس المرادُ بالحديث من ادَّعى النبوةَ مطلقاً، فإنَّهم لا يُحصون كثرة؛ لكون غالبهم/ ينشأ عن جنونٍ أو سوداء. وإنما المرادُ من قامت له شوكةٌ، وبدا له شبهةٌ كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالى من وقع منهم ذلك، وبقى منهم من يلحقه بأصحابه، وآخرُهم الدَّجالُ الأكبر(٢).

- فتبين كما قال ابن حجر – رحمه الله : أنه ليس المقصود من الحديث هو تعيين عدد وأنه لا يزيد عن ٣٠ ، بل المقصود من اشتهر أمرهم وكانت لهم شوكة ظاهرة والقوة والمنعة .

قوله: «وأنا خاتمُ النبيين» قال الحسن: خاتم: الذى خُتم به، أى: أنه آخرُ النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُم وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قوله: «ولا تزالُ طائفةٌ من أُمتي على الحق منصُورة لا يَضُرُّهم مَن خذلهم».

قال القرطبي: وفيه دليلٌ على أنَّ الإِجماع حُجَّة؛ لأنَّ الأُمَّة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة.

٢- وفيه أن المرء إذا استبان له الحق ، فلا تضعف همّته ، ولا تلين عزيمته ، وليستمسك بحبل الله عزوجل ، ولا يضره من خذله أو خالفه .

قوله: «حتى يأتي أمرُ الله» الظاهرُ أنَّ المراد به/ ما روى من قبض مَنْ بقي من المؤمنين بالرِّيح الطيبة، ووقوع الآيات العظام.

ثم لا يبقى إلا شِرار الناس؛ كما روى الحاكمُ: أنَّ عبد الله بن عمرو، قال: لا تقومُ الساعةُ إلا على شرار الخلق، هم شرُّ أهل الجاهلية. فقال عُقبة بن عامر لعبد الله: أعلَمُ ما تقول، وأمَّا أنا فسمعتُ النبي ﷺ يقول: «لا تزال عصابةٌ من أُمَّتي يُقاتلون على أمر الله، ظاهرين، لا يضرُّهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعةُ وهم على ذلك» فقال عبدُ الله: ويبعث الله ريحاً ريحها المسك، ومسُّها مسُّ الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة[٣].

- يتبقى لنا مسائل الباب ، نستكملها المرة القادمة إن شاء الله تعالى

أقول قولي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم ،،